فلقد نما في أوربا اتجاه يستلهم مبدأ التطور في الأدب من مبدأ التطور في العلوم الطبيعية ، ينظر إلى الأدب ككائن حي تطبق عليه القوانين التي أكد صحتها علم الطبيعة والحياة . وهذامايُلاحظ لدى «سبنسر» و(هيبولت تين) ، وأخيراً لدى (فرديناند برونتييير) الذي قال بأن اللون الأدبي يرتقي ويضمحل شأنه شأن النوع البيلوجي الذي يخضع لعملية تحدر سلالي مستمر (٥) .

ولسنا في هذا المجال بصدد بسط القول في شرح هذه النظريات التي تعبر عن اتجاه واحد ، ولكننا نريد التأكيد على قضية هامة وهي أن قوانين العلم والحياة المادية والطبيعية شيء ، والحياة الإجتماعية والأدبية شيء آخر .

فمن جانب أن قوانين العلم جدية وصارمة بينما يأبى الأدب أن يخضع لقانون صارم في تطوره ، فقد تحدث فيه قفزات من نوع التطور والتقدم ، وقد ترتد به قفزات من نوع التحول والتغير على ضوء الإتجاه الفكري الذي يسود عصراً ما .

وفي جهة أخرى فإنه من الممكن للعلم أن يلغي كل الجهود التي سبقته في ميدان معين ويأتي بجديد ينقض ماسبقه ، ولكننا في ميدان الأدب لانجد هذا الإنسلاخ التام بل نجد تطوراً يعتمد على الخطوات السابقة والإنجازات السابقة ، لأن الأدب يخضع للتطور الحضاري ونمط الثقافة التي تخضع للقيم الدينية والإجتماعية، ولايمكن للأدب أن يلغي حضارة بأكملها ، ويلغي أذواقاً تولدت من هذه الحضارة بأكملها ، ولكنه يضيف جديداً على ضوء الأسس والقواعد والأصول التي تأسست عبر مراحل زمنية طويلة .

ومرة أخرى نعود إلى اختلاف وجهتي النظر بين شطري الحياة الفكرية في أوربا فيما يتعلق بالأسس التي يعتمد عليها تطور الأدب ، وهما شق الحياة الرأسمالية وشق الحياة الماركسية .

ففي أوربا الغربية تواجهنا نظريات كثيرة تكاد تلتقي عند مسار واحد وهو الإيمان بعبقرية الفرد ، هذه العبقرية التي لاتخضع لقانون ولاتخضع لدورات